من تراب الطريق!

(٢٢٥) معقولات مجردة ! (*)

يبدو أن الآدمى لم يسأل من أين أتى إلاّ فى وقت متأخر - وهذا واضح حتى الآن فى الأطفال والصغار وأشباههم . فالصغير يبدأ الوجود بصفة مطلقة ابتداءً من وجود ذاته - ثم تتوالى حوله الأحداث وبعدها الأخبار ويسمع أن وجوده سبقه وجود والديه وإخوته الأكبر منه سناً .. وسبقه أقاربه والجيران والعشيرة وأهل الوطن .. وسبقه وجود آلاف ماتوا قبل وجوده .. ثم يتلقى ما نسميه الآن بالتاريخ أو القصص والحكايات وسيَر الماضين فى الدنيا أو فى الخيال .. ومن خلال ذلك يتسرب إلى تفكيره أن وجود كل آدمى قد سبقه وجود آدمى آخر أو آدميين آخرين .

وذلك التسرب لا يحدث من طريق المحو والإزالة، ولكن من طريق الإضافة والمزاحمة والتفطن ووضع شىء جديد إلى جوار شىء سابق .. قد يغطيه تماماً وقد يبقى شىء من القديم عاملاً إلى جوار الجديد فيتعارضان .. أو قد يعمل كل منهما فى منطقة خاصة، وهذا هو الشأن فى أغلبية أحوال البشر حتى يومنا هذا .. فتجد الإنسان مهما ارتقى وتعلم وفكر ودبّر وفهم وتفلسف - تجده فى معظم أحواله يسير على أن الوجود الحقيقى العينى فى الدنيا هو وجوده ودنياه، وأن إرادته واختياراته هى الأصل الذى يرد إليه حكمه على كل ما يصادفه أو يواجهه .. وهو لذلك يرفض الموت لنفسه ولأحبابه، ويرى فيه نوعاً من الاغتيال الهمجى لا يمكن إساغته .. محاولاً إبعاد شبحه بكل حيلة مع فرض إرادته ورأيه

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١٢

وتعليماته ووصاياه بما يحب وما يكره .. يفرض ذلك على من يبقى بعده على قيد الحياة، ويعتقد أن فى ذلك مرضاة واجبة له .. لكن أين ومتى وكيف ؟ فى حياة أخرى أو آخرة لا يغتاله الموت فيها قط .. ومن هنا بدأ واستمر النقل من السابق للاحق، والرجوع من اللاحق للسابق، وزيادة الجديد إلى القديم، وتفطين الجديد للقديم، وتسلسل الاتساع فى عقل الآدمى بما نسميه الآن بالنمو والتطور والتحضر والعلوم والآداب والفنون والمهارات والعبقريات والاكتشافات والاختراعات والوثبات والقفزات والثورات التى بها انتقل الإنسان بجسمه إلى الأفلاك .. ليعود منها إلى الأرض ويموت عليها - موتاً لا يمحو قفزة العقل ولا يعطلها، بل يشجع على تكرارها وتطويرها من آدميين آخرين يحملون العقل بنفس إمكاناته، وسيستمر هذا العقل قادراً على التجديد والتطور مادام فى الوجود آدمى يحمله ويحمل إمكاناته ودوافعه وأشواقه .

لكن هل نمو عقل الآدمى سيؤدى إلى ارتياح الآدمى للموت واعتباره نهاية عادية كغروب الشمس لبداية هى ميلاد الآدمى ؟ .. من الصعب أن نتنبأ. لأن نمو العقل يصحبه نمو العواطف والعلاقات الإنسانية الشخصية، وأى عاقل لا يرضى أو يرتاح لمفارقة الأحباب إلى غير رجعة ؟

تلك العلاقات الإنسانية والعواطف رواية شخصية صرف لا تتحول إلى قيم ومبادئ عامة، إلاّ بعد أن تتشابه باطراد وتعم وتسود وتفقد شخصيتها وخصوصيتها، وتصبح بذلك قابلة للانتقال بالمحاكاة والتعلم عبر الأفراد والأجيال والأجناس .. انتقال المعقولات المجردة .

لكننا مع ذلك نقول من يدرى ؟!